

الفكر الخلدوني و أزمة المجتمع العربي المعاصر

(ثلاثية : الترف، الظلم والثورة)

د. البشير قلاتي

جامعة الأمير عبد القادر -قسنطينة

العناصر:

- 1- تمهيد : أهمية الفكر الخلدوني في فلسفة التاريخ.
- 2- المنهج الخلدوني في دراسة التاريخ.
- 3- علم العمران عند ابن خلدون.
- 4- دعائم الدولة عند ابن خلدون
5. حقيقة أزمة المجتمع العربي المعاصر. هل للعصبية دور فيها؟.
- 6- أسباب أزمة المجتمع العربي المعاصر:
- الترف - الظلم
-الثورات الداخلية ودورها في خراب العمران.
- تمهيد: أهمية الفكر الخلدوني وضرورة الاستفادة منه في عصرنا..

لا شك أن دراسة التاريخ من ضرورات المعرفة الانسانية عند الأمم الحية،، فأحداث التاريخ لا تروى من باب الإمتاع والمؤانسة ،ولكن من باب استخلاص العبر والدروس للاستفادة منها في الواقع المعيش في جوانبه المختلفة اجتماعا ، اقتصادا، سياسة.....ولهذا اعتبر بعض المؤرخين الغربيين مثل الفرنسي(مارك بلوخ) التاريخ ، دراسة البشر في الزمن؛ أي في سياق الماضي، الحاضر والمستقبل، فالمؤرخ هو انثروبولوجي، عالم اجتماع وعالم مستقبلات،،، ونفس الفكرة نجدتها عند (جان بياجيه)و الباحث المشهور (قسطنطين زريق)الذي كتب أولا عن

التاريخ في الماضي (كتاب نحن والتاريخ عام 1959)، وفي الحاضر (كتاب في معركة الحضارة 1964م)، و في المستقبل (كتاب نحن والمستقبل 1977م).¹

يقول محمد رشيد رضا (ر.ه) في تفسير قوله تعالى: ((فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)) (النحل/36) " يجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غيرها من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل، عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها. والقرآن يحيل إليه في مواضع كثيرة. وقد دلنا على مأخذه على أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها" (رشيد رضا، تفسير المنار، المجلد الأول). ولعل أشهر من تصدى لذلك، عبد الرحمن ابن خلدون (808/732هـ)، ضمن موسوعته (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)...

تبرز أهمية عبد الرحمان بن خلدون (رحمه الله) من خلال أثره البالغ في تطور (فلسفة التاريخ)، وتأثيره على من جاء بعده من كبار الفلاسفة ومؤرخي الحضارات في العالم²، ليس على الثقافة الاسلامية فحسب، بل تعدى أثره إلى الثقافة العالمية؛ حتى اعتبره البعض المؤسس الحقيقي لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، وأصول منهجه، في دراسة أحداث التاريخ الذي بؤاه مكانة المعلم الأول... وفي ظل ما يحوط الأمة الإسلامية من تحديات كبرى، نسأل: كيف يمكن لها أن تستفيد من أفكار هذا الرجل الذي أشاد الكثير من الباحثين بعبقريته التي سبق بها عصره،؟؟ وكيف يمكننا تطبيق أفكاره على مشكلات مجتمعاتنا؟؟..... بعيدا عن عقدة اتسامي أو هيام المديح، لا يسعنا إلا نعتزف أن (عبد الرحمن بن خلدون) كان عملاقا في تاريخنا الثقافي، فهو العقل الفذ الذي درس أحداث التاريخ وفق المنظور السنني الفاحص، ليتوصل إلى قوانين سيرورته عبر نهر الزمن الجاري،،، وهو ما يتوافق مع منهج القرآن الكريم الأصل الديني المقدس، الذي استقرأ منه ابن خلدون منهجه في دراساته التاريخية باعتباره عالماً شرعياً وفقهياً وقاضياً يستقى أحكامه من آيات القرآن الكريم أولا والمعروف أن المنهج القرآني من جهة أخرى يقوم على توجيه العقول والحواس إلى التأمل والتدبر في أيام الله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم / 6، 7)، مع ما تزخر به آياته من الدعوة إلى توجيه النظر في قصص الأولين بأخذ العبر والدروس ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي

¹ -- وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ، اتجاهات، مدارس، مناهج، بيروت، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، ط2، يوليو 2013، ص 233، 234.

² - يشير سعد الدين ابراهيم (مدير مركز ابن خلدون للدراسات بالقاهرة) ما يثبت إلى تأثير عمالقة الفكر السياسي والاجتماعي الغربيين بابن خلدون مثل ماكيافيللي، مونتسكيو، أوجست كونت، وحتى هيجل.. أنظر: أحمد صبحي منصور، = مقدمة ابن خلدون، دراسة أصولية تاريخية، تقدم سعد الدين ابراهيم، القاهرة: مركز ابن خلدون، دار الامين للنشر، 1998م، ص 4 و5.

الألباب؛ ما كان حديثنا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴿
(يوسف/111).

وهذا ما جعل بعض الدارسين للتاريخ يذهبون إلى أن ابن خلدون كشف منهج القرآن في ذكر الأخبار والحوادث التاريخية أو ما يسميه (أيام الله) وطبق ذلك على الأحداث التاريخية التي عايشها أو درسها⁽¹⁾، ولهذا سمى دراسته الضخمة للتاريخ "العبر". وعموماً فإن "علم الاجتماع الخلدوني نتاج التفكير العلمي الإسلامي الذي ينشد فهم سنن الله في العالم المادي والعالم الاجتماعي على حد سواء".⁽²⁾، ولا بن خلدون في ذلك فضل كبير....

المنهج الخلدوني في دراسة التاريخ:

سلك بن خلدون في دراسته للتاريخ منهجا تأمليا علميا، يستقرئ فيه وقائع التاريخ؛ يتأملها:مقارناً محلاً، ليتوصل بذلك إلى القوانين الاجتماعية والتي تحكمها بصوغها علميا كسنن مضطردة؛ تساعد على فهم الحاضر وصياغة المستقبل، ولهذا يعتبره مالك بن نبي(1905-1973 م) (رحمه الله) "مكتشف منطق التاريخ في مجرى أحداثه"⁽³⁾. و نفهم حسرته على اهمال الأفكار الخلدونية في تحليل الأزمة الحضارية للأمم على مستوى النخب العلمية، نتيجة زحف التخلف وتمكنه من العقول، يقول: "ففي المجتمع التاريخي إذا ضعفت الروح شكل ذلك إيذانا بتوقف المجتمع وتقهقره، وفي مجتمع كهذا يفقد العقل إشعاعه ويصاب بالجمود لأن الأفكار الحية لا تجد لها صدقا في مجتمع مريض، مثل تلك الأفكار الحية التي أبدعها عقل (ابن خلدون) والتي لم يستطع المجتمع أن يفهمها أو يستفيد منها...."⁽⁴⁾....

ورغم متغيرات عصرنا الذي نعيش فيه وجملة تحدياته الحادثة والمتوقعة التي تختلف كثيرا عن ما شهدته عصر ابن خلدون (القرن الثامن هجري) إلا أننا يمكننا أن نستفيد من الكثير من أفكار ابن خلدون والتي سبق بها عصره

(1) - عماد الدين خليل ، حول تشكيل العقل المسلم ، ط1 ، الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، 1989 م ص 40 .

(2) - سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، ط1، القاهرة:الزهراء للأعلام العربي، 1406 هـ/1986 م ، ص 57 .

(3) - مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، اصدار ندوة مالك بن نبي ،دمشق:دار

الفكر،1406هـ/1986م.ص 62 .

(4) - مالك بن نبي ،وجهة العالم الإسلامي، ندوة مالك بن نبي، الجزائر،دمشق: دار الفكر المعاصر ، ص31.

،وهو المأمول بعيدا عن كل نزوع للتسامي أو رغبة في المديح..... ولا ريب أن دراسة أفكار هذا العملاق جدير بأن يوضح ويفسّر الكثير ممّا يعترض الأمة اليوم من مشكلات حضارية خطيرة

كان ابن خلدون ذو عقلية علمية نافذة ؛ لم تقنعه طريقة المؤرخين السابقين في نقل الأحداث دون تمحيص أو نقد، فلم يستفد الناس في فهم واقعهم أو حل مشكلاتهم، إذ فضلوا النقل على العقل والذاتية على الموضوعية والمنهج الروائي (السردى) على المنهج التحليلي وذكر حياة الملوك ووصف المعارك والغزوات على دراسة أحوال العمران، والاجتماع البشري ... لقد علّمته تجارب الحياة أن للوقائع التاريخية نظامها وطابعها، ومن يتبصّر في أحوال الخليفة والأمم يدرك بواعث قيام الحضارات وأسباب انتشارها ولا يرجع ذلك إلى المصادفة، وإنما هي سنن تاريخية اجتماعية ،، من هنا رأى أن التاريخ ميدان دراسة نقدية اختبارية تستخلص منه القوانين والسنن لفهم الحاضر والإعداد للمستقبل⁽¹⁾. وحاول اتباع منهج علمي نقدي موضوعي بعيدا عما يسميه منهج الخطابة العاطفي.²

عمد إلى عرض أحداث التاريخ على محكّ العقل والواقع؛ ولهذا تُصنّف من أدران وتلوّثات وتحريفات الهوى ، الذاتية والجهل والغفلة ... وكان يهدف إلى ربط الوقائع ببعضها من خلال العلاقات السببية والطردية وهو ما يجعل وقائع الاجتماع البشري تخضع لحنمية القوانين الاجتماعية مثلما يخضع العالم الطبيعي لحنمية القوانين الطبيعية.

سلك بن خلدون في دراسته للتاريخ منهجا تأمليا علميا، يستقرئ فيه وقائع التاريخ، يتأملها:مقارنًا محللاً، ليتوصّل بذلك إلى القوانين الاجتماعية والتي تحكمها يصوغها علميا كسنن مضطردة تساعد على فهم الحاضر وصياغة المستقبل، وهو بذلك يعتبر بحق " مكتشف منطق التاريخ في مجرى أحداثه ".⁽³⁾

علم العمران عند ابن خلدون: يرى أن علم العمران هو : " خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرضه لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم

(1) - عبد القادر عرابي، ((قراءة سوسيولوجية في منهجية ابن خلدون))،مجلة المستقبل العربي، س 12، ع 125بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، تموز 1989م، ص 91.

(2) وجيه كوثراني، م، س ، ص 98، 99

(3) - مالك بن نبي ، شروط النهضة ، م . س . ص 62 .

على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الأحوال".⁽¹⁾

ويعتبر الحضارة نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير، من خصائصها: "تفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والفرش..."⁽²⁾ ويظهر أن الحضارة هي مرحلة وفرة الإنتاج المادي والتأقق والتمتع بالحياة الرغدة مع ما يصاحبه من توسع العمران وتقدم تمدني، ويلاحظ بداية تسرب الضغط العسكري بسبب تعلق الناس بالدنيا وما يسببه ذلك من جبن وخور عزيمة وخلود إلى الراحة والكسل. ويعتد (ابن خلدون) أول من استعمل مصطلح حضارة في التراث الفكري الإسلامي ويعتبرها مرحلة حتمية بعد حصول الملك واستقراره، فهي نهاية العمران حيث قمة الرفاهية والترف والفساد المؤذن بخراب العمران، فالحضارة هي: "نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير"⁽³⁾. ولا شك أن ابن خلدون القاضي والسياسي، وهو يعايش مآزق تجربة الموحدين في الحكم، دعا إلى استقلال المنهج التاريخي؛ بتجاوز السياسة على المستوى المعرفي للإجابة عن سؤال محوري: "لماذا وكيف وقعت حالة التآزم الشاملة التي يعيشها العالم الإسلامي في عصره،،،؟"⁴.

دعائم الدولة عند ابن خلدون :

يمكن أن نشير إلى أهم دعائم الملك عند ابن خلدون وهي:

أولاً) العصبية والدين : وهناك تلازم بين قوة العصبية والرياسة، فلا تقوم الرياسة إلا على العصبية: " فالملك يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية "⁽⁵⁾، و الدين يسند العصبية ويزيدها قوة، والدعوة الدينية

(1) - ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، د.ط، بيروت: دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، د.ت، مج 1 (المقدمة)، ص 57

(2) - ن.م، ص 216، 304.

(3) - ن.م، ن.ص.

(4) - وجيه كوثراني، م، س، ص 97، 78.

(5) - تاريخ العلامة ابن خلدون، ص 277.

تزيد الدولة في أصلها إلى قوة العصبية التي لها من عددها ، والسبب في ذلك أنّ الصبغة الدينية تُذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الانتصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم ... " (1). ويجزم ابن خلدون أن الدعوة الدينية لا تنجح في بلوغ أهدافها إلا إذا كانت تستند إلى عصبية قوية، لأن: "كل أمر تُحْمَل عليه الكافة فلا بد له من عصبية ، وفي الحديث الصحيح ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه " (2) وفي هذا الإطار يذكر ابن خلدون نماذج لمن قاموا بالدعوة في المغرب أو في المشرق ورغم صدقهم وإخلاصهم إلا أن أمرهم لم يتم ومنوا بالفشل الذريع؛ لأنهم افتقدوا إلى العصبية التي تسندهم .

فإذا اجتمعت الدعوة الدينية بالعصبية القوية في قوم ، لم يقدّم لهم شيء؛ لأن طبيعة العقيدة الدينية نفي التحاسد والتباغض والظلم والعدوان الذي يحصل غالباً في عصبية النسب التي ربما تسربت إليها الأغراض وطغت عليها الأهواء. (3)

غير أننا نلاحظ مبالغة ابن خلدون في اعتبار العصبية أصل كل تحول تاريخي وتغيّر حضاري وتجاوز في ربط نشوء الدولة بقوة العصبية، حتى أننا نشعر أن العقيدة الدينية مجرد داعم للعصبية الدموية وجعل من قوة العصبية ودورها في ذلك قانوناً عاماً. وهو في ذلك ربما متأثر بأحداث ووقائع عصره،.. فهل أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم؟.... التسليم بذلك ينفي الخصائص الذاتية للدعوة الدينية، ويضعف من قوة العقيدة الدينية كطاقة روحية، دافعة للحركة والتغيير ، فتصبح مجرد قوة داعمة للعصبية القومية المبنية على القرابة ، وما استشهد به ابن خلدون من بعض دعاة التأثير ضد حكم الجور في المغرب أو المشرق وما لاقوه من فشل إنما يرجع إلى سوء استعداد وظروف مادية وتاريخية لم تتوفر لهم ... (4)

(1) - ن،م ، ص 278 .

(2) - ن،م، ص 279 ، 280 .

(3) - ن،م ، ص 278 .

(4) - محمد فاروق النبهان ، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة ، م.س ، ص 178 .

ثانياً: الأخلاق والتعاون: يؤكد ابن خلدون على أهمية خِلال الخير في استمرار الدولة، وقد عرفنا أن من أهم خصال الجيل الأول، جيل البداوة، أن نفوسهم أقرب إلى خصال الخير باعتبارهم أقرب إلى الفطرة، أما خِلال الشر فعارضة للإنسان من حيث القوى الحيوانية (الشهوات)...⁽¹⁾

لا تناقض بين الملك الحاصل بالعصبية والغلبة والأخلاق، إذ أن السياسة إذا اعتمدت العدل والمساواة وإيفاء الحقوق ضمنت قوة الملك واستمرار الدولة وزُرعت الثقة بين الرعية والراعي وزاد العمران واتسعت الصنائع، وفي هذا يؤكد ابن خلدون أن استقرار الحكم لأهل العصبية يحصل بارساء دعائم الأخلاق التنافس " في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر، والقرى للضيوف وحمل الكل، وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الأموال في صون الأعراض، وتعظيم للشريعة وإجلال العلماء الحاملين لها...وبالعكس من ذلك إذا تآذن لله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة." ⁽²⁾ وإشارته هنا إلى قوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناها تدميراً﴾ -الإسراء 16- .

العدل أساس الملك، من لوازم الأخلاق وحكم الناس وسياستهم بالأخلاق والفضائل تزيد في حبهم وثقتهم في الحاكم فيحصلون له وحين تشعر النفوس بالثقة في حكامها تطمئن نفوسهم ويقبلون على العمل فيكثر الإنتاج ويعم الرجاء.

وبالمقابل فإن الظلم يدفعها إلى الخمول واللامبالاة؛ لياس نفوسهم وملك الخوف عليهم وهو ما يدفعهم للتكاسل عن القيام بالصنائع وأحوال المعاش، وفي هذا نجد ابن خلدون منطلقاً من مرجعيته الدينية حيث تحتل الأخلاق قمة الهرم في السياسة الإسلامية ولا قيمة لحاكم لا يأخذ الناس على مقتضى الخلق الرفيع، ولتقارن بين ما أكده بن خلدون من خلال استقراءه لحوادث التاريخ وبما ذهب إليه بعض رجال السياسة في الفكر الغربي وبعض أقطابهم إلى أن الغاية تبرر الوسيلة وجعلوا من ذلك قاعدة للحكم.

(1) - تاريخ العلامة ابن خلدون، م.س، ص 250، 251 .

(2) - ن، م، ص 251، 252 .

ثالثاً المال: ومما بينى عليه الملك عند ابن خلدون المال يقول: " إعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما، فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال." (1)

فقوة الدولة لا تتحقق إلا باقتصاد قوي يزيد في توسيع العمران فيأمن الناس فيه على معاشهم فيزيد النشاط الاجتماعي ويكثر النسل، ووفرة المال عند ابن خلدون ترف معتدل يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها والسبب في ذلك " أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف وكثر التناسل والولد والعمومة، فكثرت العصابة، واستكثروا أيضاً من الموالي والصنائع وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه، فزادوا بهم عددًا إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصابات حينئذ بكثرة العدد " (2)

ويكون هذا في أول مراحل الدولة، لكن إذا تحول المال إلى غاية في حد ذاته يُجمع ويكنز، وإذا تحول إلى تبذير ورفه ووسيلة لتحقيق أنواع الملذات، حينئذ يصبح أداة لانهايار الدولة؛ لما يسببه الرفه من نعومة وجبن وتعلق بمتاع الدنيا، ولهذا فالترف أو الوفرة المادية لا تُدم لذاتها ولكن لسوء استخدامها.

- حقيقة الأزمة في العالم العربي المعاصر: تبدو حالة العالم العربي اليوم غير مستقرة؛ في ظل أوضاع متأزمة، تواجهه تحديات كبرى تهدد بنيته العضوية، ويظهر أنه مدفوع دفعا لحوض معركة بقاء، لم يستعد لحوضها، بما يؤهله لتحقيق أدنى انتصار أو الخروج على الأقل بأدنى الخسائر،،،، والمرحلة القائمة للتخلف الذي تعيشه الأمة هو امتداد لمرحلة ما بعد الحضارة كما يسميها مالك بن نبي (1905-1973 م) (رحمه الله)...

والمشكلة الأساس هي مشكلة تخلف الحضاري التي لا تزال تثقله وتشده إلى ترابه البائر في زمنه الضائع،،، يقول مالك بن نبي (رحمه الله): " مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تدمرها. وما الحضارات المعاصرة والحضارات الضاربة في ظلام الماضي والحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية... تتمثل فيها جهود الأجيال المتعاقبة في خطواتها، المتصلة في سبيل الرقي والتقدم. وهكذا تلعب

(1) - ن،م، ص 251 .

(2) - ن،م، ص 309 .

الشعوب دورها، وكل واحد منها يُبعث ليكُون حلقته في سلسلة الحضارات حينما تدق ساعة البعث معلنة قيام حضارة جديدة ومؤذنة بزوال أخرى". (1)

يمكننا أن نلتمس في أفكار ابن خلدون بعض ما يمكننا إسقاطه على مشكلاتنا الحضارية في هذا العصر، لأن سنن التغيير الاجتماعي سنن مضطردة يمكننا التحقق بها لفهم هذه المشكلات ووضع خطط لحلّها.....

1- دور العصبية: يجعل ابن خلدون قوة العصبية أساس قيام الدولة ويعتبر ضعفها سبب سقوط الدولة،

بل إننا نفهم أهمية الدعوة الدينية، كأنها مجرد عاضد لها،، يقول: "إن الدعوة تزيد (لاحظ) الدولة في أصلها قوة العصبية..... والدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم".²، ولعل هذه النظرية تصدق على المجتمعات القبلية لكن

في عصرنا حيث قوة المؤسسات خاصة في العالم الغربي، تجعل نظرية العصبية بالمفهوم الخلدوني بعيدة عن الواقع،⁽³⁾، نعتقد أن القيم الروحية للدين قد محت أو على الأقل قللت بشكل كبير تأثير العصبية على المجتمع، كما حدث في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعصر الخلافة، ولعلّ العصبية اليوم قد تصدق على عصبية جماعات المصالح المادية أو السياسية. حيث يتواطأ أصحاب المصالح الخاصة ولوبيات الضغظ من أصحاب رؤوس الأموال على التحالف ضمن شركات كبرى (كارتلات)، تستطيع من خلال النفوذ والضغط الاقتصادي وتمويل الحملات الانتخابية للاستيلاء على الحكم (حماية لمصالحها) وكسبا لمزيد من النفوذ والمكاسب المادية.....

2- أسباب انهيار البناء الاجتماعي:

(1) - مالك بن نبي، شروط النهضة، م، ص، ص 19، 20،

(2) - تاريخ العلامة ابن خلدون، ص 278، 279.

(3) - حسين مؤنس، الحضارة، سلسلة عالم المعرفة رقم 237، ط2، الكويت: مطابع الرسالة، 1419 هـ/1998 م، ص 168.

يرى ابن خلدون أن سقوط الدولة أمر حتمي لأن قانون الحركة التاريخية يقتضيه، لكن ذلك مرتبط بأسبابه، وأهم أسباب سقوط الدولة أمران: الترف والظلم...

***الترف** (الرفاهية): حيث يتحوّل المال إلى غاية، يجمع وينفق في أنواع الملذات وتلبية أصناف الشهوات من مأكّل وملايس ومراكب ... حينئذ تذوي أخلاق البداوة وخلاصها كالصبر والشجاعة، والأنفة وما تقوم عليه علاقاتها من قوة العصبية، فيحصل لهم بالترف أخلاق معاكسة، كالجبن، قلة الصبر الاستسلام، الكسل... فيصبحون في حاجة إلى ما يدافع عنهم كالنساء والولدان، بل ويعجزون حتى عن القيام بالضرورة من أمورهم لرخواوة أجسادهم ونعموتهم، ويتجرؤون في أحاديثهم عن الفواحش وتنحرف أخلاقهم....⁽¹⁾ وخطورة الترف هي في تحول التحسينيات ضروريات، واستشراء داء الكسل والخمول والدعة التي تبطيء الحركة الاجتماعية شيئاً فشيئاً إلى أن تتوقف.... وقد تتوافق هذه الفكرة مع ما تعانيه الكثير من المجتمعات العربية اليوم من ضياع أخلاقي وتفكك أسري وأمراض وانحرافات، وبرز الطبقة المقيتة؛ حيث تعاني الأقلية التخمّة بينما تعاني الأكثرية الجوع.... " وما جاع فقير إلا بتخمّة غني".... وحتى في الفكر الغربي نجد من يحذر من انغماس المجتمع في الترف ويتوقع سقوط الحضارة بسببه مثل ما ذهب إليه (اشبينغلر، آرنولد تونبي، ألبرت شواتزر....). ولا يخفى أن الانغماس في التعميم مفسد للأخلاق، ويجري ذلك على المجتمعات كما يجري على الأفراد..

***الظلم**: وهو الاستبداد بالملك؛ أي أن الحاكم يُعرض عن مشاورة أهل الشورى من حاشيته وأهل عصبيته. ويحصل ذلك في المرحلة الثانية، فينقلب الملك من العدل ومشاركة أهل العصبية في الحكم إلى الاستبداد به؛ لأن " الملك منصب شريف ملذوذ، يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً، وقلّ أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه فتقع المنافسة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة"⁽¹⁾. ويحتاج الملك إلى زيادة أرزاق الجند ويكثر من أعطياتهم فيزيد الترف ويكثر التبذير، ما يلجأ معه الملك إلى الزيادة في الضرائب الكثيرة على التجار والحرفيين والصناع والزراع ويقهرهم على دفعها لمداراة جنده بالمال وهؤلاء طبقة غير منتجة؛ يؤدي ذلك إلى اشتداد الظلم على الناس فيضعف العمران، بما يؤدي إلى ضعف الدولة وبتالي سقوطها (**والظلم مؤذن بخراب العمران**)، كيف يحدث ذلك؟.... يجيبنا ابن خلدون بقوله: " أعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من أن غايتها

(1) - ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، م، ص، ص، ص، 247، 522.

ومصيرها انتهاجها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقضت أيديهم عن السعي في ذلك." (2)، فقهر الناس وغضبهم أموالهم وغمظهم حقوقهم يدفع بهم إلى اليأس وفقدان الأمل والخوف على أنفسهم وأموالهم ما يجعلهم يخفون هذه الأموال، ولا يغامرون باستثمارها، فتتحول إلى ثروة مكتنزة بدل أن تكون رأسمالا منتجا. مما يعطل حركية الانتاج فيتوقف النمو... وتحدث الأزمات...

وللظلم عن ابن خلدون معنى شاملا لكل تعدي من السلطة الحاكمة ، ف" كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه... ووبال ذلك عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها؛ لإذها به الآمال من أهله." (3)،ومن أشد الظلم، تسخير الناس في أعمال دون إعطائهم مقابلها حقوقهم التي يستحقونها ، مما يؤدي إلى عزوفهم عن العمل ، كذلك ما تقوم به الدولة من شراء السلع من العمال والفلاحين بأسعار زهيدة واحتكارها ثم إعادة بيعها لهم بأثمان باهظة ... وهو ما يؤدي إلى كساد السوق وضعف العمل وقلة الإنتاج فتتحلل الدولة ويضعف عمرانها، كل ذلك بسبب الترف وأنواع الجبايات التي يستكثرون منها ويسمونها بألقاب شتى ، يقول: " ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر، والحاجة إلى أموال الناس تشتد ، ونطاق الدولة (سلطنتها) بذلك تزيد إلى أن تتمحي دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها، والله أعلم " (4).

ومما يؤكد علمية فكر ابن خلدون وتأثير أفكاره اللامحة، ما ذكره الباحث (سعد الدين ابراهيم) أن الرئيس الامريكى السابق (رونالد ريغن) نفسه استشهد - وهو يعرض برنامجه الاقتصادي على الشعب الامريكى على التلفزيون شتاء عام 1983 م بابين كلدن (أي ابن خلدون كما نطقها الرئيس)، الذي قال أن كثرة الضرائب الفادحة تصرف المواطنين عن الانتاج والاستثمار الذي يستفيد منه البلد وتدفعهم إلى كنز أموالهم. بما يعود بالضرر على الاقتصاد الوطني. (5)،

(1) - تاريخ العلامة إبن خلدون، م، س ، ص 271 .

(2) - ن، م ، ص 525 ، 526 .

(3) - ن، م، ص 510 .

(4) - ن، م ، ص 513 ، 514 .

(5) - أحمد صبحي منصور ،مقدمة ابن خلدون،دراسة أصولية تاريخية ،تقدم سعد الدين ابراهيم، القاهرة :مركز ابن خلدون، دار الامين للنشر،1998م،ص6.

وهو ما يثبت فعلا ألمعية ابن خلدون في فكره السياسي والاقتصادي، ومن هنا ندرك كيف استطاعت السياسة في الغرب الاستفادة حقا من أفكار هذا العبقرى بينما لم تتحقق فعاليتها في العالم الإسلامي، تماما مثلما قال مالك بن نبي-بحق-: "والحق أن الاقتصاد في الغرب قد صار منذ قرون خلت ركيزة أساسية للحياة الاجتماعية، وقانونا جوهريا لتنظيمها.

أما في الشرق فقد ظلّ على العكس من ذلك في مرحلة الاقتصاد الطبيعي غير المنظم، حتى أن النظرية الوحيدة التي تناولت تأثير العوامل الاقتصادية في التاريخ - وهي نظرية ابن خلدون- قد ظلت حروفا مَيّنة في الثقافة الإسلامية، حتى نهاية القرن الأخير" (1).

وما ذهب إليه ابن خلدون مما ينبغي أخذه بعين الاعتبار، لأن من أهم أسباب التخلف الاقتصادي في مجتمعاتنا العربية هو هذا الظلم الواقع على الناس في مجالات العمل المختلفة: زراعة، صناعة أو تجارة....

وكثير من دارسي الحضارات في الغرب يتفقون مع ابن خلدون في ما ذهب إليه من خطورة دور كل من الترف من جهة والاستبداد من جهة أخرى، في انهيار الدول وسقوط الحضارات، أما الترف فهو العامل الأساسي في ذلك كما يؤكد (غوستاف لوبون) و(الكسس كاريل) و(ديورانت) و (آرنولد توينبي) فديورانت يذكر أن السنن التاريخية التي تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذي يخلق المدينة هو نفسه الذي ينذر بانحلالها وسقوطها، ذلك أن الثراء يبعث الخمول ويرفق أجسام الناس وطباعهم ... (2) وهذا ما يؤكد القرآن نفسه في الآية التي ذكرناها. حول استحقاق القرية التي يشيع فيها الترف التدمير الكامل، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مَتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ -الإسراء/16-

وفي قوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ، فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (الأنبياء 11...14)

(1) -مالك بن نبي، فكرة الافريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط3، الجزائر، دمشق، دار الفكر، 1413هـ/1992م، ص159.

(2) - عبد الله اشريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، سلسلة الدراسات الكبرى . د.ط، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت، ص 363...365.

ويذهب أحد الباحثين إلى أن الترف هو السبب الرئيسي في انحلال الحضارات، لكنّه في الدولة العربية أكثر تأثيراً وسرعة في التدمير ، ويرجع ذلك إما إلى كون الدولة العربية تنتقل مباشرة من حياة الشّطف إلى حياة الترف مما يعرضها لتخمة قاتلة أو أن افتقار بنيتها الداخلية للنظم والمؤسسات المحكمة التي تحفظها من عدوان نفسها على نفسها بسبب عجز العلماء المسلمين عن تطوير مبادئ الإسلام إلى نظم وقوانين وتحصينها بمؤسسات تسهم على تنفيذها...⁽¹⁾

يُرجّح (حُسين مؤنس)، وهو باحث في التاريخ، الاحتمال الثاني، حيث يرى أن سقوط الدولة لا يرجع إلى بلوغها عمراً محدداً لا تتجاوزه لأنها لم تقم على مؤسسات بل على فرد انقطعت صلتهم بالأمة (أي انقطاع الصلة بين الحاكم والمحكوم)، ويعتبر ما يسميه ابن خلدون هرم الدولة سوء سياسة ناشئ عن قيام الدولة على الغضب والقهر والظلم واستحواذ العسكر على المال⁽²⁾.

أما سوء عاقبة الاستبداد بالحكم دون الرعيّة وإهمال مبدأ الشورى الذي أمر به الله تعالى نبيه الكريم مع انه مؤيد بالوحي: ﴿ فَأَعْفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ. ﴾ (آل عمران / 159) ، وما يؤدي إليه ذلك من تقويض أسس الدولة، فأمر صحيح تؤيده وقائع التاريخ ، وقد أصاب ابن خلدون في تحليل اثر الاستبداد في فساد العمران وخرابه، والذي يؤدي إلى انهيار الدولة ؛ لأنه يؤدي إلى فقد الثقة بين الحاكم والمحكوم وعزوف الناس عن عمل والإنتاج....

ولعلّ هذا من أهم الأسباب التي عجلت بسقوط الاتحاد السوفيتي وانحيار المعسكر الاشتراكي وانقسامه كما يشير إليه رئيس الاتحاد السوفيتي والأمين العام للحزب الشيوعي غورباتشوف في كتابه عن سياسة الإصلاح إعادة البناء (البيريسترويكا).⁽³⁾ . أدرك الغرب هذا الأمر الخطير فعملوا على ارساء دعائم العدل الاجتماعي لارساء دعائم دولهم،، وكان الفصل بين السلطات والحرص على الاستقلال الفعلي (لا الدعائي) للسلطة القضائية عن السلطة التنفيذية هو العامل الأساس لتحقيق، وقد نجحوا في ذلك ، حيث انعكس ،جوا من الحرية ،فأمن الناس على حقوقهم ،وحصلوا الثقة في حكاهمهم ، وخشي الحاكم أن يتعسف في أمور الرعيّة،، وحصل الاتقان في العمل

(1) - ن، م ، ص 351 ، 352 .

(2) - حسين مؤنس ، م. س ، ص 174 ، 175 .

(3) - ميخائيل غورباتشوف ، بيريسترويكا ، نظرات جديدة على بلادنا وعلى العالم ، ترجمة العربي سي الحسن ، د.ط، الجزائر : موفم صاد ، ص، ص 16... 18 ، 46 ، 90 ، 91 .

لأمن تحصيل الحقوق،، في المقابل لم يستطع الحكم في عالمنا العربي إلى اليوم أن يرفع قبضته عن القضاء، وبقية السُّلط الأخرى؛ مما وُلد دكتاتوريات في ثوب جمهوريات وهو سبب خراب العمران، وتختلف المجتمع... وأصبح من المسلم به عندنا حتى في أديباتنا الشعبية أن الغرب ما انتصر علينا إلا بعدله الاجتماعي....

*الثورات الداخلية ودورها في خراب العمران :

لا يهتم ابن خلدون بشكل السلطة الحاكمة، خلافة أو ملكا،،، المهم تنفيذ العدل، فملكية عادلة خير من خلافة أو جمهورية ظالمة..

لا شك أن الظلم والقهر والاستبداد إضافة إلى الترف والانغماس في النعيم، يشكلان البيئة المناسبة لظهور الحركات الاحتجاجية التي تأخذ طابعا عنيفا على شكل ثورات لتغيير الأوضاع واستعادة الحقوق... فالثورة في حقيقتها نتيجة للتّرف الذي تنغمس فيه طبقة الحكم والظلم الذي تمارسه على الشعب...

وقد أشار(ابن خلدون) إلى تلك الحركات الثورية عبر التاريخ الإسلامي ، بما يحمل كثيراً من الأسى والسخرية معا، فيقول : " ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء، فإن كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أصل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله، فيكثر إبتاعهم والمتشبهين بهم من الغوغاء والدهاء، يعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين [كذا!] غير مأجورين؛ لأن الله لم يكتب ذلك عليهم، وإنما أمر بذلك حين تكون القدرة.. هذا بالنسبة للمخلصين منهم أما المبلّسين في طلب الرئاسة فهؤلاء أكيد هلاكهم". (1)

يلق أحد الباحثين، على ما ذهب إليه ابن خلدون بقوله: " لأن تشجيع الثورات في شعب أمي لم يتزود بتجربة سياسية ولا يملك مسيره قاعدة من المبادئ الأخلاقية يقيمون عليها حركاتهم، لا يؤدي إلا إلى الفوضى التي تشمل مختلف أنحاء البلاد وتحرم الناس حتى من فترة استقرار وطمأنينة يتصرفون فيها إلى معالجة شؤون حياتهم اليومية، ولو عجزوا عن القيام بالأعمال الحضارية القوية. وليس ابن خلدون هو الذي يجهل ما جرّته الانتفاضات والثورات في بلاد المغرب من عوائق البناء الحضاري والتقدم العمراني... " (2) . وهو ما يتوافق حاليا مع فكر

(1) - ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، م، س، ص 280، 281.

(2) - عبد الله اشريط، م، س، ص 377، 378.

جماعات المفاصلة والتكفير التي تدعوا إلى الثورة على الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله، وهو ما أدى إلى فتن وفوضى؛ لأن رسوخ أقدام الحكم في هذا الوقت لا يرجع إلى قوة العصبية الدموية، بل يرجع إلى الإمكانيات الهائلة للدولة والقدرة الفائقة للجيش بفروعه وأقسامه المختلفة التي لا تقدر عليها أي جماعة تريد الخروج المسلح على الحاكم، الذي يملك من الإمكانيات المادية والعسكرية ما تعجز عنه أي قوة تملكها جماعة معينة تريد الاستيلاء على الحكم⁽¹⁾

وليس بخافٍ ما جناه استعمال العنف في التغيير، حتى صارت دورة خبيثة من الثورة والاستئصال كظاهرة يتآكل بها المجتمع من داخله كدوره للاهتلاك الحضاري يلخصها أحد الباحثين بقوله:

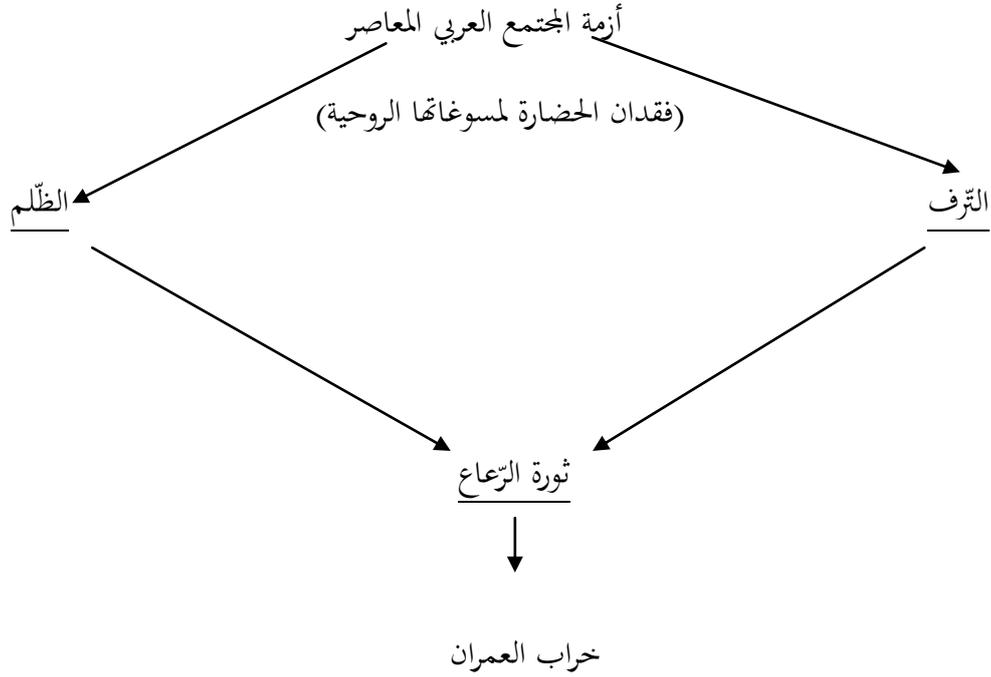
"... فلا يكاد يخطئ الباحث أن نموذجاً خبيثاً يتكرر منذ سنوات في عالمنا العربي... نموذج يبدأ بظهور شخصية ذات صفات قيادية تحمل فكراً أعرجاً مما هو متراكم في كتب التراث... ثم التفاف مجموعات من الشباب حول هذا الفكر الأعرج... منهم من هو مؤمن ومنهم من هو مشبوه، ثم نمو التيار لحجم حرج، فتوريط التيار عن طريق المشبوهين في داخله وحمق أفكاره في أحداث حمقاء بالغة الحماقة، فانقضاء أجهزة الأمن على التيار وإجهاضه..."²

ولا ريب أن ما عرفته الكثير من مجتمعاتنا العربية في عصرنا مما يسمى بثورات الربيع العربي، ما يمكن اعتباره نموذجاً لحركة تدمير المجتمع وتخريب العمران.. وهو ما تؤكد الأوضاع اليوم في ليبيا، سوريا، مصر.... دون أن ننسى ما عاشه المجتمع الجزائري إبان ما يسمى بالعهود السوداء... والتي خلفت آثاراً (نفسية ومادية) خطيرة ما زال المجتمع الجزائري يتجرّع علقمها إلى اليوم....

ومنطق التغيير الاجتماعي يشير إلى أن هذه السُّلطة الحاكمة في المجتمعات العربية إذا أرادت تفادي مآزق مثل هذه الثورات التدميرية، فما عليها إلا تفادي أسبابها الرئيسية، الترف و صنوف التبذير بالاعتدال في المعيشة وإعطاء النموذج والقدوة، وتفادي الظلم بمفهومه الواسع، أقله تطبيق حدي صارم بين السلطات وخاصة الفصل بين السلطة التنفيذية والقضائية... لإرساء دعائم العدل وإعادة الأمل للناس، وهو الشرط الأساس في التنمية الاجتماعية البشرية؛ لأن الإنسان أساس أي مشروع تنموي....

(1) - عبد الحميد متولي، أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث، ط2، مصر: نشأة المعارف، دت، ص 276، 277

(2) -- سيد دسوقي حسن، ، مقدمات في مشاريع البعث الحضاري، ط1، الكويت، دار القلم 1407هـ/ 1987، ص46، 47.



لكن المشكلة عند ابن خلدون، اعتباره أي محاولة للتغيير محاولة عابثة، لأن الدورة الحضارية حتمية، وكل محاولة لتفادي السقوط مآلها الفشل؛ من حاول ذلك فكأنما حاول وقف الهرم في الكائن الحي، فما يعرض للدولة من أحوال النشأة ثم الحضارة ثم الهرم فالسقوط كما مرّ، كلها أمور طبيعية، وكما أن أسبابها أمور طبيعية أيضاً فتأخذ طابع الحتمية، وكل من حاول إصلاح الأمور لتفادي السقوط منعتة العادات وتقاليده المجتمع وهو ما يسميه ابن خلدون العوائد "ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس، والخروج من العوائد الجملة..."⁽¹⁾ فسقوط الحضارة أمر حتمي وسنة مضطردة في مجرى التاريخ، ولعل هذا ما يجيبنا عن سؤال مهم: لماذا لم يكلف ابن خلدون نفسه في البحث عن وسائل وطرق معالجة هرم الدولة، حتى أن تحليله للدورة التاريخية يدعو فيه لليأس من كل جهد تغييري حيث يقول: "وقد ينتبه كثير من أهل الدولة ممن له يقظة في السياسة، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم، ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم، ويحسبه أنه

(1) - ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، ص 520، 521.

لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم ، وليس كذلك ، فإنما هي أمور طبيعية للدولة والعوائد هي المانعة له من تلافيتها " (1)

نشير في الأخير إلى ما ذكره أحد أبرز تلامذة ابن خلدون وهو (مالك بن نبي) رحمه الله الذي اعتبر أن التاريخ حركة اجتماعية تبعثها مجموع عوامل نفسية ناتجة عن دفعة الروح؛ بما تشكله من طاقة يبعثها الإيمان في النفس والذي يجعل من النفس المحرك الجوهرى للتاريخ الإنساني (2)

فقرار معاوية بتحويل الخلافة الى ملك - وإن كان في ظاهره قرارا سياسيا- إلا أنه كان ذو أبعادٍ حضارية عميقة حيث أفقد المجتمع توازنه الأولي بين الروح والعقل، ساهم في إخماد الروح وإضعاف سلطتها على الغرائز وشيئا فشيئا تحمد الطاقة وتتوقف الحضارة، ثم لا تلبث أن تنهار بفعل قوة الجذب الأرضي " فحيثما فقدت الروح(منع الأخلاق)، كان السُّقوط والانحدار؛ لأن كل من يفقد قوته التصاعدية لا بد له من الانحدار بتأثير ثقله الذي لا يقاوم....

فإذا ما وصل المجتمع إلى هذه المرحلة من تطوره، وخمد النَّفس الذي بعث الحياة لأوّل مرة، أدرك نهاية الدورة التاريخية، وهاجرت المدينة إلى منطقة أخرى تبدأ فيها دورة تاريخية جديدة تعتمد على تركيب عضوي تاريخي جديد، ويفقد العلم في المنطقة الفارغة كل معنى ، فحيثما يخمد إشعاع الروح يكف نشاط العقل ، حتى لكأن الإنسان، يفقد تعطّشه إلى المعرفة والعمل إذا ما فقد الاندفاع الذي يبعثه فيه الإيمان" .. (3)

ونجد أن ابن خلدون نفسه يُرجع زوال العمران واضطراب المجتمع إلى ما يحصل حين تتحول السياسة من تنافس في الخير إلى تنافس في الشر، وتحويل الحاكم من ممارسة الإقناع إلى التمادي في القهر والتغلب ، وتحويل الخلافة التي تقوم على القانون إلى ملك يقوم على القهر وفتح المجال لصراع العصبية ،... ويظهر التحول الشامل

(1) - نفسه ، ص 520 .

(2) - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، اشراف ندوة مالك بن نبي ، ط3، الجزائر ودمشق: دار

الفكر، 1406هـ/1986م ، ص26

(3) مالك بن نبي ، مستقبل الاسلام ، ترجمة شعبان بركات ، د ، ط ، صيدا ، بيروت : المكتبة العصرية ، د ت ، ص15، 16 ووجهة العالم الاسلامي .م س ، ص 29،30.

نحو الفساد، ففي مظهره الخلقى حصل الصدوف عن طلب السياسة للحق إلى طلبها للباطل ، وفي مظهره الاجتماعي انتصار منازع الملك ومقتضى العصبية على مقتضى القانون ، وفي مظهره الاقتصادي تركز الثروة في يد الأقلية وجنوحها إلى الترف والانحلال ، وفي مظهره السياسي ، الانفراد بالسلطة والاستبداد بالقرار...ومن هنا نشأت الثورات والفتن والتنافس على الملك والاستبداد به. (1)

وما يقرره مالك بن نبي حول توقف إشعاع العقل بفعل فراغ الروح في المرحلة الغرائزية، يشير إليه ابن خلدون، إذ أن ضعف الإبداع يرجع إلى اضطراب العمران وانتشار الظلم وقهر الرعية وكبت الحريات وهي من خصائص مرحلة الهرم ، مقابل ذلك فإن الإبداع العقلي والتمدني إنما يزدهر في مرحلة الحضارة حين تستقر الدولة وينتشر عمرانها وتزدهر المعاش ويأمن الناس على أنفسهم أمواهم. (2)

ولعل ما ذهب إليه ابن خلدون يسانده واقع الحضارة الغربية، وما تعرف من ازدهار مادي وتقدم علمي وتقني غير مسبوق بفعل التنظيم الدقيق وجو الحرية... رغم ما تعانيه مجتمعاتها من فراغ روحي يشتكي منه عقلاؤهم.

أرجع مالك بن نبي أصل المشكلة إلى ضعف الدفع الروحي (القوة الإيمانية) بما جعل حركة المجتمع تضعف شيئاً فشيئاً مثل الآلة التي تتوقف حركتها تدريجياً لنقص الوقود. ففي المجتمع التاريخي إذا ضعفت الروح شكل ذلك إيدانا بتوقف المجتمع وتقهقره، وفي مجتمع كهذا يفقد العقل إشعاعه ويصاب بالجمود لأن الأفكار الحية لا تجد لها صدقاً في مجتمع مريض، مثل تلك الأفكار الحية التي أبدعها عقل (ابن خلدون) والتي لم يستطع المجتمع أن يفهمها أو يستفيد منها....

أما إمكانية التغيير الاجتماعي وإصلاح الأوضاع فأمر ممكن بدليل الآية الكريمة التي تجعل إمكانية التغيير في أيدي أفراد مجتمع دون جبر وإكراه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ - **الرعد 11** - وهي سنة التغيير الاجتماعي الإرادي التي تنفي حتمية السقوط في الدولة، كما تنفيها النصوص الكثيرة التي تدعو إلى الإصلاح والتغيير، وهي عين ما قام به الأنبياء والرسل الكرام وجاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما وصف به الله تعالى المؤمنين: رجال ونساء، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

(1) حسن صعب ، الاسلام وتحديات العصر . ط 5 ، بيروت . دار العلم للملايين ، 1981 ، ص 84 ، 85 .

(2) - تاريخ العلامة ابن خلدون ، م.س ، ج 2 ، ص 777 .

بعض يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ﴿ -التوبة 71-، ولا عبرة بما بنظرية الحتمية أمام سنة التغيير الثابتة في القرآن ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) (الرعد/11)....

تمّ بحمد الله يوم الاثنين 05 جانفي 2015 ميلادي الموافق لـ 14 شهر ربيع الأول 1436 هجري

الدكتور البشير قلاتي/ قسم الدعوة والاعلام، كلية أصول الدين

المراجع:

- ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ العلامة ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، د.ط، بيروت : دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة ، د.ت مج 1
- بن نبي ، مالك، شروط النهضة ، ندوة مالك بن نبي، دمشق: دار الفكر المعاصر، د.ت.
- بن نبي ، مالك ، وجهة العالم الإسلامي، ندوة مالك بن نبي، الجزائر، دمشق: دار الفكر المعاصر
- بن نبي ، مالك ، فكرة الافريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط3، الجزائر ، دمشق، دار الفكر، 1413 هـ/ 1992م .
- بن نبي ، مالك، مستقبل الاسلام ، ترجمة شعبان بركات ، د، ط ، صيدا ، بيروت : المكتبة العصرية ، د ت
- حسن، سيد دسوقي ، مقدمات في مشاريع البعث الحضاري، ط1، الكويت، دار القلم 1407هـ/ 1987.
- خليل ، عماد الدين، حول تشكيل العقل المسلم ، ط 1 ، الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، 1410 هـ / 1989 م .
- الخطيب (سليمان) ، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، ط 1 ، القاهرة : الزهراء للأعلام العربي ، 1406 هـ/ 1986م
- صبحي منصور ، أحمد ، مقدمة ابن خلدون، دراسة أصولية تاريخية ، تقديم سعد الدين ابراهيم، القاهرة : مركز ابن خلدون، دار الامين للنشر، 1998م .

- اشريط ، عبد الله، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، سلسلة الدراسات الكبرى . د.ط ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د.ت،
- غورياتشوف، ميخائيل ، بيرسترويكا ، نظرات جديدة على بلادنا وعلى العالم ، ترجمة العربي سي لحسن ، د.ط، الجزائر : موفم صاد ، دت،
- صعب ، حسن ، الاسلام وتحديات العصر . ط 5 ، بيروت . دار العلم للملايين ، 1981م .
- كوثراني، وجيه ، تاريخ التأريخ، اتجاهات، مدارس، مناهج، بيروت، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، ط2، يوليو 2013.
- متولي ، عبد الحميد، أزمة الفكر السياسي الاسلامي في العصر الحديث ، ط2 ، مصر : نشأة المعارف ، د ت
- مؤنس(حسين) ، الحضارة ، سلسلة عالم المعرفة رقم 237 ، ط2 ، الكويت : مطابع الرسالة ، 1419 هـ/1998م.
- مجلة المستقبل العربي، س 12، ع 125 بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، تموز 1989م.
- النبهان ، محمد فاروق، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1418هـ/1998م.